

صبح الأعشى في صناعة الإنشا

الخطاب الشريف الذي لولا أن عصمة الموالة تثبت فؤاده الخافق وتسدد لسانه الناطق لما تعاطى وصف ما أعطاه من كتابه المرقوم وسبق إليه من سحابه المركوم فإنه مما يشف عنه الأمل ناكما وهو كسير وينقلب دونه البصر خاسئا وهو حسير ألا أن الانعام الشريف يبدأ الأولياء بما لو وكلهم إلى أمانهم لتهيب أن تتعاطى حظيته ولو فوضه إلى راحتهم لنكلت عن أن تترقى نصيته ولا غرو للسحاب أن يصفح قطره الثرى والفجر أن يشرق نوره على عين الكرى والسرى .

فالحمد الذي قرب على المملوك منال الآمال وثبت حصة فؤاده لما لا تستقل بحمله صم الجبال ويستنيب عن جهر الشكر بسر الأدعية ويقتصر على ما يفضي به إلى المحاريب وإن لم يقصر عما يقصه في الأندية ويطالع بأن مملوك الخدمة وابن مملوكها أخذ الكتاب بقوة وشمر لخدمة أشرف خلافة لأشرف نبوة وتلقاه تلقى أبيه الأول الكلمات ورأى إطلاع الأمير المؤمنين على ما في ضميره من طاعته إحدى المعجزات والكرامات وسمع المشافهة خاشعا متصدعا واشتمل عليها بفهمه ساميا طرفه متطلعا .

ولقد أشبه هذا الكتاب الكريمبيعة أخذت عليه مد إليها يده آخذا بكلتا يديه والمملوك يرجو بل يتحقق أن هذا العبد المشار إليه سيوفي على سابقه من عبيد الدولة العباسية في الزمان ويكون بمشيئة الله أسبق منهم بالإحسان .

وقد صدرت خدمتان من جهته وبعدهما تصدر الخدم ولا يألوا جهدا في خدمتين مباشرة بيده السيف ومستنيبا عنها العلم وله نصره باقية في الولاء وهو غني بها عن النصير وسريرة بادية في الطاعة وهو إليها أسكن منها إلى كل مشير يعود المملوك إلى ما لا يزال يفتح به الصلوات المفروضة ويختتم به الختمات المعروضة من الدعاء الصالح الذي وإن أغنى الله عليه عنه فقد أحوج ذوي العقائد السليمة إليه لأنه مركز لأعمالهم بل متمم لإسلامهم وكيف لا يدعون لمن يدعون به يوم يدعى كل أناس بإمامهم فيقول جمع